

جماليات الفاصلة القرآنية

Aesthetisc of the quranic comma

أحمد بوصيع

جامعة الزيتونة، تونس، علوم إسلامية

Ahmed17dj@Gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/07/14 تاريخ القبول: 2022/03/20 تاريخ النشر: 2022/06/09

ملخص :

جمال القرآن جمال متفرد، لا يماثله جمال أو يقترب منه، والفاصلة القرآنية لوحة جمالية من جمالياته وركيزة بيانية في نظمه، وركن بارز في تركيبه، تضيف عليه جمالا وإعجازا، والمتذوق للغة الخطاب القرآني، يدرك مكانة الفاصلة القرآنية وموقعها وهدفها من حيث دلالة المعنى ودلالة الإيقاع معا، فهي تخلق للـب، وتأخذ بالإحساس، وتمتلك النفس، شديدة الارتباط بالمعنى، واختلاف الفواصل يفضي إلى اختلاف المعاني، وتكرارها بلفظ واحد فيه تأكيد ومبالغة، فهي قيمة جمالية صوتية، لها وظيفة مهمة بما تحمله من إيماءات ومعان، يراعى فيها اللفظ والجرس والدلالة.

الكلمات الدالة:

الخطاب القرآني – الفاصلة القرآنية – جماليات

Abstract:

The beauty of Quran is unique. No beauty is similar or close to it. The koranic comma is one of its painting aesthetics and a graphic anchor of its composition. It gives Quran beauty and miracle. The connoisseur of the language of the Quran discourse understands the status, location and aim of the koranic comma in terms meaning and rythm together. It exudes the pulp, takes the feeling and possesses the soul. It is closely related to the meaning and different different separations add different meanings. Its repetition in one word has affirmation and exaggeration. It is an aesthetic and acoustic value. It has an important function including references and meanings, taking into account the prononciation, intonation and significance.

Keywords:

Aesthetisc - Quranic discourse - Quranic comma

1- مقدمة:

الخطاب القرآني لذة النفوس ورياض القلوب وبهجة الأرواح، ومحور تدور عليه همم الأخيار ومصب تنصب منه جداول شمائل الأطهار، فالمتلقي لجمالياته والباحث في أغواره وأسراره يقرأه لا لقصد زيادة الملكة اللغوية والحصيلة الثقافية والاطلاع فحسب! بل يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن المجتمع الذي يعيش فيه وشأن الحياة التي يحياها، يتلقى جماليات القرآن ليؤثر في قوله وفعله وسلوكه، وتفتح له آفاق لم تكن لتفتح له بغيره، ومتى علت هممة الباحث في تدبره واستنباط حكمه وأحكامه، والوقوف عند باب إعجازه في لفظه ونسقه واتساقه ونظمه وتناسب أصواته ومفرداته وفواصل ومقاطع آياته، حملت صاحبها إلى مفارقة العوائد وطلب الأوابد، إذ هو خطاب منفتح ومفتوح يناسب المتغيرات زمانا ومكانا، خارج عن المعروف والمألوف من نظام كلام العرب، "وهو على نسق رفيع واحد من السمو في جمال اللفظ ورقة الصياغة وروعة التعبير، رغم تنقله بين موضوعات مختلفة من التشريع والقصص والمواعظ والحجاج والوعد والوعيد، وتلك حقيقة شاقة بل لقد ظلت مستحيلة على الزمن لدى جميع فحول علماء العربية والبيان"⁽¹⁾، يقول الرافعي: "ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجري

مجرى الحشو والاعتراض، أو ما يقال فيه أنه تغوث واستراحة كما تجد من ذلك في أساليب البلغاء، بل نزلت كلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة...⁽²⁾.

إن هذا الإعجاز في الخطاب القرآني يجعل المتلقي وهو يتذوق تلك الجماليات يشعر بالرهبة والرغبة والخوف والمحبة إذ يهتز وجدانه آنا ويهدأ ويرتاح آنا آخر، جمال متفرد، لا يماثله جمال أو يقترب منه، إنه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة؛ وكلما أخذت فيه على وجه الصحيح فلم تخل بأدائه، رأيت غضا طريا، وجديدا موقنا، وصادفت من نفسك له نشاطا مستأنفا وحسا موفورا، ولا نرى جهة تعليله ولا نصحح منه تفسيراً إلا إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية، وتساوق حروفه وكلماته وتأليفها وتتابعها⁽³⁾، إننا لا نملك حيال تلك الجماليات التي لها ملكة التأثير بما تملكه من إيقاع وجرس وسمات وعلامات، تمكنها من الأداء في استمالة القلوب وأسر الأرواح أي تفسير، قال الله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقَشُّعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخِشُّونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (الزمر: 23).

وقف متأملا الفاصلة القرآنية بجمال وقعها في السمع واتساقها الكامل مع المعنى ولو نزعناها ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد، ونحن نتبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القرينة...⁽⁴⁾، وإن كل فاصلة في الآية من النص تدل بمفردها على معان تتساوق مع المعنى الجلي للخطاب.

ومن هذا المنطلق نطرح تساؤلا: ما هي صور تلك الجماليات خاصة في قيمة الفاصلة القرآنية؟.

2- القيمة الجمالية في الفاصلة القرآنية:

الفاصلة القرآنية لوحة جمالية من جماليات الخطاب القرآني، وركيزة بيانية في نظمه وركن بارز في تركيبه، تضيف عليه جمالا وإعجازا وهي صورة تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الأصوات، ولها أثر بالغ في التأليف الصوتي والمعنوي، وفي التصوير البياني، وتتجلى جماليتها من دلالتها السياقية، إذ يبرز فيها الالتحام بين الصوت والدلالة ولفن كان في الرياح لواقع الأشجار، ففي جمال الفاصلة القرآنية لقاح الأفئدة والضمائر والأبصار فهي: "ليست قافية شعر ولا حرف سجع وإنما هي شاهد قرآني لا يوجد إلا فيه، ولا يعتدل في كلام غيره"⁽⁵⁾، تمتاز بحسن الإيقاع، فتأتي في ختام الآيات حاملة تمام المعنى وتتمام التوافق الصوتي في آن واحد.

"والفواصل حلية وزينة للكلام المنظوم، ولولاها لم يتبين المنظوم من المنشور، ولا خفاء أن الكلام المنظوم أحسن، فثبت بذلك أن الفواصل من محاسن الكلام المنظوم، فمن أظهر فواصله بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنه، وترك الوقوف يخفي تلك المحاسن، ويشبه المنشور بالمنظوم، وذلك إخلال بحق المقروء"⁽⁶⁾.

3- أنواع الفواصل القرآنية:

الفواصل في القرآن الكريم، تتنوع حسب السياق والمضمون فمنها القصير ومنها الطويل، ومنها المتماثل ومنها المتخلف، لتتكون من هذا التنوع جماليات الإيقاع الموسيقي والتصوير البياني، وذلك أن تلك الفواصل من جملة المقصود من الإعجاز القرآني؛ لأنها ترجع إلى محسنات الكلام وفصاحته؛ والغرض البلاغي يستدعي الوقوف عندها؛ لتقع في الأسماع موقعا حسنا، فتتأثر نفوس السامعين بمحاسن ذلك التماثل، كما تتأثر بالقوافي في الشعر، وبالأسجاع في النثر، فمثلا قوله (إِذِ الْاَغْلَالُ فِيْ اَعْنَاقِهِمُ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ) (غافر: 71)، وقوله سبحانه: (فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ) (غافر: 72)، أيضا، وقوله سبحانه: (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ اَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ) (غافر: 73) (من دون الله) (غافر: 74)، إلى آخر الآيات. فقوله: (في الحميم) متصل بقوله: (يسحبون)، وقوله: (من دون الله): متصل بقوله (تشركون)، وينبغي الوقف عند نهاية كل آية منها، ومثل ذلك يقال في قوله سبحانه: (واشهدوا اَنِّي بريء مما تشركون) (هود: 54)، هذه آية وقوله: (من دونه) (هود: 55)، ابتداء الآية بعدها، فإذا كان الوقوف على هذه الفواصل من الأهمية بمكان، لما يتركه ذلك من أثر في نفوس المستمعين⁽⁷⁾، لتفتتح أذهانهم على حقيقة مكونة في الخطاب القرآني، يتذوقون فيها مواطن الجمال لقوة الإبداع الذي يعجز البشر إيجاد مثيل له.

3-1 الفواصل المتماثلة (المتجانسة):

هي التي اتفقت حروفها صفة ومخرجا، نحو قوله تعالى: (حَكْمَةً بِالْعَةِ فَمَا تُغْنِ التُّنْذِرُ*) (فتوكة عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكرو*) (القمر: 5-6)، فقد وقع التجانس في اللفظ (النذر، النكر)، وقد حقق هذا التجانس وحدتين إيقاعيتين (النون والراء)، فأبانت من خللهما الفاصلة عن دلالتها المتمثلة في تصوير إعراضهم وإصرارهم، وعدم انتفاعهم بالأنباء، وقلة جدوى النذر مع هؤلاء، وعند هذا الحد يتوجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للإعراض عنهم وتركهم يلاقون اليوم الذي لا يحفلون بالنذير باقترابه، وهم يرون انشقاق القمر بين يدي مجيئه: (فَتَوَكَّعْهُمْ يَوْمَ يُدْعِ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ*) (خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر*) (مطعين إلى الداع يقول الكافرون: هذا يوم عسر*).. وهو مشهد من مشاهد ذلك اليوم، يناسب هو له وشدة ظلال السورة كلها ويتناسق مع الإرهاص باقترب

الساعة، ومع الإنباء بانشقاق القمر، ومع الإيقاع الموسيقي في السورة كذلك! وهو متقارب سريع .. (8).

وقد تأتي الفواصل متحدة نحو قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (*) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (*) قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (*) (غافر: 64-66) هذه ثلاث آيات اتحدت فواصلها فجاءت كلمة واحدة: (رب العالمين) ومع هذا التكرار في الفاصلة لم تحس في التعبير إلا جمالا وحدة خرج معها التكرار مخرج الجودة والحسن، الفاصلة متحدة لفظاً ومعنى في المواضع الثلاثة، ولكن من حيث تعلقها مع ما جاءت بدلاً منه أوصفت له، ففيه سر أسر، في الأولى: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)، وفي الثانية: (الحمد لله رب العالمين)، وفي الثالثة: (وأمرت أن أسلم لرب العالمين)، والمتأمل يجد بين المواضع الثلاثة تسلسلاً مرتبة ترتيب المسبب على السبب فالتبارة مستوجب للحمد ومن تحقق له هذان الغرضان وشعر بعظمة الله وفضائله وحده عليها وجب أن يسلم له ويخضع لإرادته، وهذا التباين في المعنى هو موطن السر في خفة روح التكرار فيه وخلاصة أثره لفظاً ومعنى (9).

3-2 الفواصل المتقاربة:

هي التي تقاربت جروف رويها في المخرج، كتقارب الدال مع الباء في قوله تعالى: (ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ) (*) بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب (*) أنذا متنا وكنتا ترابا ذلك رجع بعيد (*) (ق: 1-3)، المجيد: ذو المجد والشرف على غيره من الكتب، ومن أحاط علما بمعانيه وعمل بما فيه: مجد عند الله وعند الناس، وهو بسبب من الله المجيد، فجاز اتصافه بصفته. قوله (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته، ومن كان على صفته لم يكن إلا ناصحاً لقومه، خائفاً أن ينالهم سوء ويحل بهم مكروه، وإذا علم أن مخوفاً أظلمهم، لزمه أن ينذرهم ويحذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف ونهاية المحاذير، وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث، مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السماوات والأرض وما بينهما، وعلى اختراع كل شيء وإبداعه، وإقراهم بالنشأة الأولى، ومع شهادة العقل بأنه لا بد من الجزء، ثم عول على أحد الإنكارين بقوله تعالى (فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ)، إذا متنا دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحق بالإنكار، معناه: أحين نموت ونبلى نرجع؟ ذلك رجع بعيد مستبعد مستنكر (10)، في هذه الآية تعبير فريد وإيقاع رهيب زاد الفاصلة جمالا وقوة.

3-3 الفواصل المتوازنة:

وهي التي تتفق فيها الفاصلتان في الوزن والروي، كقوله تعالى (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ) (*) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) (*) (الانفطار: 13-14) وقوله تعالى: (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ) (*) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ) (*) (الغاشية: 13-14) فالفواصل (نَعِيمٍ، جَحِيمٍ) و(مَرْفُوعَةٌ، مَوْضُوعَةٌ) متفقة في الوزن والروي.

4-3 الفواصل المتوازنة:

وهي التي يراعى فيها الوزن فقط، كقوله تعالى (لَيْسَ لَوْعَتُهَا كَذِبَةٌ) (*) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ) (*) (الواقعة: 2-3)، فالفاصلتان (كَاذِبَةٌ، رَافِعَةٌ) متفقتان بالوزن فقط.

5-3 فواصل المطرف:

وهي التي تتفق في حروف الروي دون الوزن نحو قوله تعالى: (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) (*) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) (*) (نوح: 13-14) فالفاصلتان (وقار) و(أطوار) متفقتان في الروي مختلفتان في الوزن.

4- أنماط الفاصلة القرآنية:

لا تقتصر الفاصلة على نمط واحد ولكنها تتحول من نمط إلى آخر، والتزامها بنمط واحد شائع في مواضع عدة من القرآن الكريم، ولنا نماذج متعددة، من ذلك ما جاء في سورة البقرة، ولنتأمل قول الله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مِنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ) (البقرة: 143) تقدم لفظ (رؤوف) ليقع لفظ رحيم فاصلة فيكون أنسب بفواصل هذه السورة لانباء فواصلها على حرف صحيح ممدود يعقبه حرف صحيح ساكن ووصف رؤوف معتمد ساكنه على الهمز والهمز شبيه بحروف العلة فالنطق به غير تام التمكن على اللسان وحرف الفاء لكونه يخرج من بطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا أشبه حرف اللين فلا يتمكن عليه سكون الوقف، وتقديم بالناس على متعلقه وهو لرؤوف رحيم للتنبيه على عنايته بهم إيقاظا لهم ليشكروه مع الرعاية على الفاصلة⁽¹¹⁾.

وفي قول الله تعالى في سورة القمر: (سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوْثِنُ الدُّبُرُ) (القمر: 45) أفرد الدبر، والمراد الجمع لأنه جنس يصدق بالمتعدد، أي يولي كل أحد منهم دبره، وذلك لرعاية الفاصلة ومزاوجة القرائن، على أن انهزام الجمع انهزيمة واحدة ولذلك الجيش جهة تول واحدة. وهذا الهزم وقع يوم بدر⁽¹²⁾.

ولنتأمل اختلاف الترتيب في الآيات بين السور في معرض العذاب أو النعيم، وتباين الفاصلة القرآنية، نحو قوله تعالى من سورة (ص): (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ) (*) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (*) (إِنْ كَلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ) (ص: 12-14)، وقوله تعالى من سورة (ق): (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ) (*) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطَ (*) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ) (ق: 12-14)، فنلاحظ تبايناً في ختام الآيتين فالفاصلة في سورة (ص): (فحقَّ عِقَابُ) والفاصلة في سورة (ق): (فحقَّ وعيدُ)، ذلك أن سورة (ص) مبنية فواصلها على أن تردف أواخرها بالألف، واقتصارها على نمط واحد.

وهذا النمط الذي التزمت به الفاصلة شائع في مواضع عدة من الخطاب القرآني، كالقمر، والأعلى، والشمس، والليل، والقدر، والعصر، والفيل، والكوثر، والإخلاص، والناس، وهذه الفواصل نلاحظ فيها تمام التوافق الصوتي والكمال المعنوي في آن واحد.

وتأتي الفاصلة في مواضع أخرى من القرآن الكريم مغايرة لغيرها، وفي هذا دلالة على أن المقصود بالدرجة الأولى هو المعنى، ففي سورة طه مثلاً: تأتي الآية (فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِمُجْرَمٍ) فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (طه: 78) مغايرة للفاصلة القرآنية في باقي آيات السورة (تَكْفَى، يَخْشَى، هَدَى) لأن المقصود الأول هو المعنى، وكذلك في سورة الأنبياء الآية (قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ) (الأنبياء: 66) مغايرة لباقي آيات السورة (يشهدون، ينطقون، تعقلون) وليس لها ارتباط بما قبلها وبعدها.

وتأتي الفاصلة في مواضع أخرى من القرآن الكريم متناسبة مع هدف السورة ومضمونها، تحمل دلالة الإيقاع الموسيقي ودلالة المعنى الكامن في المفردة والتركيب، وتأمل معي تلك الجمالية في فواصل سورة الحاقة، إذ أكسبتها الهاء جمالا وقوة ورهبة، فالكلام عن الحشر وهو يوم ثقيل كما أخبرنا سبحانه وتعالى ووصفه بيوم عسير وأنه عبوس قمطير والناس في ذلك اليوم ييقون خمسين ألف سنة في هذه الشدة حتى يفزعون إلى الأنبياء. والهاء أشبه بالنهاية (المتعبين) تصور المشهد الذي هم فيه جميعاً من تعب وعناء فاخترها سبحانه لمراعاة الموقف الذي هم فيه، إذن استخدام حرف الهاء في فواصل هذه السورة يدل على التعب والعناء والألم والهاء مأخوذة من الآه⁽¹³⁾، فتأمل إحكام التأليف بين الحروف وتنزيلها على أحسن هيئة في الإيقاع، وتأمل تلك النبرات الصوتية الربية، (... خاوية، راضية، ماليه، حسايه، كتابيه، سلطانيه ..) ووزنها المتقارب، ونسقتها المتوازن، إذ زادها السكت حسنا على حسنهما، وكساها لطافة وجمالا وتأثيرا.

5- علاقة الفاصلة بالسياق:

المقصود الأول في القرآن الكريم هو المعنى وتأتي الفاصلة شديدة الارتباط به بجرسها وإيقاعها، ويتجلى المعنى وتبرز الدلالة بتعطف الكلام عليها، حكى الأصمعي قال: "كنت أقرأ (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). وبجني أعراي، فقال: كلام من هذا؟ فقلت كلام الله قال: أعد، فأعدت، فقال: ليس هذا كلام الله فانتبهت فقرأت **وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**، فقال أصبت هذا كلام الله فقلت: أقرأ القرآن؟ قال: لا، فقلت: فمن أين علمت؟ فقال: يا هذا عز فحكم فقطع فلو غفر ورحم لما قطع" (14).

وفي قول الله تعالى: (إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (المائدة: 118)، السياق يوحي بالغفران، لكن الآية ختمت بـ (العزیز الحکیم) ولم تختم بما يلائم الدلالة الظاهرة (الغفور الرحيم)، لأن المقام مقام هول وفاجعة وليس مقام إبداء رغبة، فقدم المغفرة وأردفها بالعزة والحكمة، كون العزیز يغفر عن مقدرة، والحكيم عالم بما يليق بهم، ومن ثم جاء ربط الحكمة بالعزة تعبيراً مصوراً رائعاً، وبياناً قاطعاً ذلك أنه ما انتهت آية قرآنية إلا بفاصلة ملائمة كل الملائمة لمعناها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها، غير نافرة ولا قلقة" (15).

وفي قوله تعالى من سورة الرحمن: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)، تكررت إحدى وثلاثين مرة، للسائل أن يسأل عن العدة التي جاءت عليها هذه الآية متكررة، وعن فائدتها، والجواب أن يقال: نبه الله تعالى على ما خلق من نعم الدنيا المختلفة في سبع منها، وأفرد سبعا للترهيب والإنذار والتخويف بالنار، وفصل بين السبع الأول والسبع الآخر بواحدة تلت آية سوى فيها بين الناس كلهم فيما كتب الله من الفناء عليهم حيث يقول: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) (الرحمن 26)، أي من على الأرض: وهذه الفاصلة للتسوية بين الملائكة وبين الإنس والجن في الافتقار إلى الله. (16)

إن تكرر الفاصلة بعينها في مواضع عدة من الخطاب القرآني كالرحمن والقمر والمرسلات، ليس خاصاً بالإيقاع الصوتي والنغم الموسيقي فحسب، بل لها وظيفة معنوية تتجلى بالتأمل في السياق.

وفي قوله تعالى وفي قوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) (*) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (*) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ... (المؤمنون: 12-14)، حيث أخرج ابن أبي حاتم عن طريق الشعبي عن زيد بن ثابت قال: إملأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية، وهنا قال معاذ بن جبل: (فتبارك الله أحسن الخالقين) فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: بما ختمت (17).

وفي قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ) (*) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) (السجدة: 26 - 27) فقد تحدثت الآية الأولى عن القرون المهلكة، فهو حديث عن التاريخ، وتحدثت الآية الثانية عما يشاهدونه على الأرض، كيف ينزل عليها الماء فتنبت الزرع، فأمر التاريخ يسمع سماعاً، فناسب أن تختم الآية بقوله تعالى: (أَفَلَا يَسْمَعُونَ) وأمر إنزال المطر من السماء يشاهد ويصرونه إبصاراً، فناسب أن تختم الآية بقوله تعالى: (أَفَلَا يُبْصِرُونَ) (18).

وفي قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (*) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) (*) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (*) (الأنعام 97-99)، جاءت فواصل هذه الآيات مختلفة وكل منها واقع موقعه من البيان البالغ، فحساب النجوم والأفلاك في الأولى مختص بالعلماء فناسب أن تكون فاصلته: (لقوم يعلمون)، وخلق الإنسان من نفس واحدة، وتكثيره وتحيته الرزق له، وتدير أمره، فناسب أن تكون فاصلته: (لقوم يفقهون) لأن الفقه أدق من مجرد العلم، أما الثالثة: فقد اختصت بالنعم التي عليها تقوم مطالب الحياة الدنيا فكان - بحسب الظاهر - أن تكون فاصلته: (لقوم يشكرون) فعدل عنها إلى: (لقوم يؤمنون) لنكتة أوجبت ذلك (19).

وقد يحذف الصوت الأخير مراعاة للفاصلة والسياق وهذا ملحوظ في مواضع عدة من الخطاب القرآني ولنتأمل قول الله تعالى في سورة الضحى: (وَالضُّحَى) (*) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى) (*) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) (*) وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى) (الضحى: 1 - 4)، حذف المفعول به (الكاف) من (قلى) رعاية للفاصلة التي تتماشى مع بقية الفواصل من 1 إلى 8، لتقوية الأداء وروعة الإيقاع، ومراعاة للسياق كان الحذف كذلك، "لدلالة ما قبله على المحذوف، وتقتضيه حساسية معنوية مرهفة، بالغة الدقة في اللطف والإيناس، هي تحاشي خطابه تعالى لحبيبه المصطفى في مقام الإيناس: ما قلاك، لما في القلى من الطرد والإبعاد وشدة البغض، أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بالفراق على كره، مع رجاء العودة واللقاء" (20).

نلاحظ من هذا أن الفاصلة لم تأت كبنية لفظية جمالها إيقاعي موسيقي لاعلاقة لها بالفكرة والهدف بل ترتبط بالسياق ارتباطاً وثيقاً، يزيد جمالاً وبهاءً وإشعاعاً ذاك المعنى المتولد منها.

8- خاتمة

- المتذوق للغة الخطاب القرآني، يدرك مكانة الفاصلة القرآنية وموقعها وهدفها من حيث دلالة المعنى ودلالة الإيقاع معاً.
- إن ورود الآيات في سياق إعجازي، ونسق صوتي متجانس، يضيف على الفاصلة القرآنية جمالها وحسها الإيقاعي، فهي تخلق اللب، وتأخذ بالإحساس، وتمتلك النفس.
- تأتي الفاصلة شديدة الارتباط بالمعنى، واختلاف الفواصل يضيف إلى اختلاف المعاني، وتكرارها بلفظ واحد فيه تأكيد ومبالغة.
- الفاصلة القرآنية في الخطاب القرآني قيمةً جماليةً صوتيةً، لها وظيفةٌ مهمةٌ بما تحمله من إحياءات ومعان، يراعى فيها اللفظ والجرس والدلالة.

الهوامش:

- (1) محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1420 هـ، 1999 م، ص 113-114
- (2) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1425 هـ، 2005 م، ط 8، ص 155.
- (3) ينظر: الرافعي، مرجع سابق، ص 152.
- (4) جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1408 هـ، 1988 م، ج 1، ص 23.
- (5) ينظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، دار القلم، دمشق، ط 3، 1426 هـ، 2005 م، ص 134
- (6) محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد عبد العليم البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، 1384 هـ - 1964 م، ط 2، ج 20، ص 207.
- (7) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 م، ج 1، ص 76.
- (8) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط 17، 1412 هـ ج 6، ص 3429.
- (9) ينظر: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، ط 1، 1413 هـ - 1992 م، ج 1، ص 309.
- (10) ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1407 هـ، ج 4، ص 380.
- (11) ينظر: ابن عاشور، مرجع سابق، ج 2، ص 26.
- (12) ينظر: ابن عاشور، مرجع سابق، ج 27، ص 213.
- (13) السامرائي فاضل صالح، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار للنشر والتوزيع، ط 5، ص 371.
- (14) ينظر: بهاء الدين الهمذاني، الكشكول، تح: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1418 هـ - 1998 م، ج 2، ص 112.
- (15) ينظر: بكرى شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، دارالعلم للملأين، بيروت، لبنان، ط 1، 2004 م، ص 202.
- (16) ينظر الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، تح: محمد مصطفى أيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها، ط 1، 1422 هـ - 2001 م، ج 1، ص 1229.
- (17) ينظر: الشوكاني، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط 1، 1414 هـ، ج 3، ص 568
- (18) ينظر: فضل عباس وسناء عباس، إعجاز القرآن الكريم، فهرس المكتبة الوطنية، عمان، 1991 م، ص 228.
- (19) ينظر: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ج 1، ص 228.
- (20) عائشة بنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف - القاهرة، ط 7، ج 1، ص 35.